Journal of Arabic Language and Literature (JALSL) • Vol 4, Issue 4 (2025) • P: 39 - 28
https://journals.ajsrp.com/index.php/jalsl
ISSN: 2790-7317 (Online) • ISSN: 2790-7309 (Print)

The Eloquence of Abu Bakr al-Siddiq's Discourse: His Inaugural Caliphate Sermon as a Model (An Analytical Study)

Dr. Jamil Hussein Ayyash
Faculty of Arts | Arab American University | Palestine

Received: 19/08/2025
Revised: 25/08/2025
Accepted: 10/09/2025
Published: 15/12/2025

* Corresponding author: jamil.ayyashacp@aaup.edu

Citation: Ayyash, J. H. (2025). The Eloquence of Abu Bakr al-Siddiq's Discourse: His Inaugural Caliphate Sermon as a Model (An Analytical Study). *Journal of Arabic Language Sciences and Literature, 4*(4), 28 – 39. https://doi.org/10.26389/AJSRP.J210825

2025 © AISRP • Arab Institute for Sciences & Research Publishing (AISRP), United States, all rights reserved.

• **Open Access**

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: This paper presents a critical rhetorical analysis of the sermon delivered by Abu Bakr al-Siddiq (may Allah be pleased with him) upon his accession to the caliphate, treating it as a paradigmatic example of early Islamic political and religious oratory. The importance of this sermon lies not only in the critical historical circumstances under which it was delivered, but also in its profound thematic content, which demonstrates al-Siddiq's acute awareness of the burdens of leadership and his unwavering commitment to the welfare of the Muslim community.

The study is structured around three central dimensions. First, it examines Abu Bakr's rhetorical mastery and his profound engagement with the Qur'an, particularly in his strategic employment of its meanings within his discourse. Second, it analyzes two representative passages from his statements, revealing their intellectual and ethical implications. Third, it investigates the rhetorical and stylistic devices employed in his inaugural address, emphasizing their role in reinforcing both the persuasive and moral dimensions of his speech.

The findings reveal that Abu Bakr's sermon exemplifies a unique synthesis of Arabic eloquence and just political leadership. It is distinguished by its precision of expression, depth of meaning, and equilibrium between rational argumentation and emotional appeal. Accordingly, it serves as a foundational reference for understanding the formative stages of Islamic oratory and its role in directing the Muslim community while embedding the values of justice, security, and social cohesion.

Keywords: Abu Bakr al-Siddiq, political oratory, rhetorical analysis, Islamic leadership, early Islamic discourse.

من بلاغة الخطاب عند أبي بكر الصدّيق –رضي الله عنه– خطبة مبايعته بالخلافة أنموذجاً (دراسة تحليليّة)

الدكتور/ جميل حسين عيّاش
كلية الآداب | الجامعة العربية الأمريكية | فلسطين

المستخلص: يتناول هذا البحث تحليل خطبة أبي بكر الصدّيق –رضي الله عنه– عقب مبايعته بالخلافة، باعتبارها نموذجاً متكاملاً للخطاب السياسي والديني في صدر الإسلام. وتكمن أهمية الخطبة في السياق التاريخي الحرج الذي ألقيت فيه، وفي مضامينها العميقة التي تعكس وعي الصدّيق بمسؤوليات الخلافة وحرصه على مصلحة الأمة الإسلامية.

ويستند البحث إلى ثلاثة محاور رئيسية: المحور الأول يدرس بلاغة الصدّيق وفهمه للقرآن الكريم وتوظيفه في خطابه، والمحور الثاني يحلل نصَّين من كلامه يظهران أبعاداً فكرية وقيمية، أما المحور الثالث فيركز على الأساليب البيانية في خطبته بعد توليه الخلافة.

وتوصل البحث إلى أن خطبة الصدّيق تمثل نموذجاً فريداً للبلاغة العربية والسياسة العادلة، من حيث جزالة اللفظ، وعمق المعنى، وتوازن العقل والعاطفة، مما يجعلها مرجعاً مهماً لفهم فن الخطاب الإسلامي المبكر ودوره في توجيه الأمة وإرساء قيم العدل والأمن والطمأنينة.

الكلمات المفتاحية: أبو بكر الصدّيق، الخطاب السياسي، الأساليب البيانية.

المقدّمة:

يُعدّ القرآن الكريم ذروة البيان والفصاحة، ثم يليه الحديث النبوي الشريف في بلاغته وإعجازه البياني، ثم يجيء كلام الصحابة الكرام –رضوان الله عليهم– في طليعته أبو بكر الصدّيق –رضي الله عنه– الذي عُرف بصفاء التعبير، وقوة البيان، ودقة الفهم. وتأتي خطبته عند مبايعته بالخلافة في لحظة فارقة من تاريخ الأمة الإسلامية لتجسّد ذلك المستوى الرفيع من البلاغة؛ إذ جمعت بين قوة الحجة ووضوح المعنى وجزالة اللفظ، مما يجعلها نصًّا جديرًا بالبحث والتحليل.

مشكلة الدراسة

على الرغم من تعدّد الدراسات التي تناولت شخصية أبي بكر الصدّيق، أو مواقفه السياسية والدينية، إلا أنّ الوقوف عند البنية البلاغية لخطبه لم يحظَ –على حدّ علم الباحث– ببحث مستقل؛ مما ترك فراغاً معرفياً في مجال الدراسات البلاغية. وتتمثل الإشكالية هنا في محاولة الإجابة عن سؤالين رئيسين:

1- ما أبرز الأساليب البلاغية في خطبة أبي بكر الصديق عند مبايعته بالخلافة؟
2- كيف أسهمت هذه الأساليب في نجاح الخطاب، وإقناعه؟

وينبثق عن هذه الإشكالية عدد من الأسئلة الفرعية، منها:

1. ما الملامح العامة لبلاغة أبي بكر الصديق كما تجلّت في خطبه وكلامه؟
2. ما أهم الأساليب البيانية التي تضمّنتها خطبته عند المبايعة؟
3. كيف أسهمت تلك الأساليب في تعزيز المعنى وإقناع المخاطَبين؟

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الملامح البلاغية في خطبة أبي بكر الصدّيق –رضي الله عنه– عند مبايعته بالخلافة، وذلك من خلال إبراز أثر القرآن الكريم في صقل ملَكته البيانية، وانعكاس ذلك على خطبه وكلامه. كما تسعى إلى تحليل الأساليب البيانية الواردة في الخطبة، مثل: التشبيه، والتوكيد، والمزاوجة، والتكرار، والمقابلة، والمطابقة، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير، وبيان دورها في تقوية المعنى وإقناع المخاطَبين، وتعمل الدراسة كذلك على رصد السمات الأسلوبية التي ميّزت خطبة الصدّيق، وجعلتها نموذجاً مبكراً للخطاب السياسي والديني في الإسلام، وإلى جانب ذلك، إسهامها في إثراء الدراسات البلاغية من خلال تسليط الضوء على نصٍّ قلّما حظي بالعناية التحليلية مقارنة بخطب الرسول ﷺ أو الخلفاء الراشدين الآخرين، مع إبراز العلاقة بين البيان والسلطة في الخطاب الإسلامي المبكر، ولا سيما من خلال دراسة كيفية إسهام البلاغة في تثبيت شرعية الخلافة الأولى.

أهمية الدراسة

تتجلّى أهمية هذه الدراسة في أنّها تكشف عن ملامح البيان العربي في أرقى صوره بعد الوحي، وتُظهر أثر البلاغة في تثبيت القيم الإسلامية وتوجيه الأمة في مرحلة انتقال السلطة. كما أن هذا النص يمثّل أنموذجًا للخطاب السياسي والديني في آن واحد، بما يحمله من دلالات بلاغية عميقة.

سبب اختيار الدراسة

ويعود اختيار الدراسة إلى ندرة الدراسات التي تناولت خطبة الصدّيق بالتحليل البلاغي المفصّل، رغم قيمتها الأدبية والتاريخية؛ فمن هنا جاءت الرغبة في سدّ هذه الثغرة العلمية، وتسليط الضوء على الأساليب البيانية التي اتكأ عليها الصدّيق في خطبه.

منهج الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي؛ إذ تمّ وصف النص وتحليله للكشف عن الأساليب البيانية التي استخدمها أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– في خطبته، كما استعانت الدراسة بالمنهج الاستقرائي من خلال جمع الشواهد البلاغية، وتصنيفها، وتحليلها في ضوء نظرية البيان العربي.

خطة الدراسة

قُسّمت الدراسة إلى مقدمة وثلاثة محاور، يتناول المحور الأول من بلاغة الصدّيق –رضي الله عنه- ودقّة فهمه لآي الذكر الحكيم، والمحور الثاني نصّان من أدب الصدّيق–رضي الله عنه- يدلان على بلاغته، ويعالج المحور الثالث أبرز الأساليب البيانية في خطبة الصدّيق – رضي الله عنه- لمّا بُويع بالخلافة.

المحور الأول: من بلاغة الصدّيق –رضي الله عنه- ودقّة فهمه لآي الذكر الحكيم.

لقد اصطفى الله –عزّوجلّ- سيدنا محمداً –صلى الله عليه وسلم- على الأولين والآخرين، واصطفى له خير الناس بعد النبيين، فجعلهم أصحابه، وصدق الله العظيم، إذ يقول: {وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}(1).

ومن بين أصحابه الكرام أبو بكر الصدّيق –رضي الله عنه-، فهو صاحب النبي –صلى الله عليه وسلم- في الغار، والخليفة بعده، وقد أُوتي فهماً دقيقاً عميقاً لكتاب الله -عزّ وجلّ- ويظهر الفهم في استحضاره الكامل لكلّ معاني القرآن، وهو يقتبس آية منه، أو يستشهد بأخرى، أو يستنبط حكماً من أحكامه، ومن الصور الدالة على ذالك أنّه لمّا توفي النبي –صلى الله عليه وسلم- "اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهش، فخولط، ومنهم من أُعتقل لسنته فلم يُطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية، وكان من هؤلاء عمر، فبلغ الخبر أبا بكر، فجاء مسرعاً، فدخل المسجد، وعُمر يكلّم الناس، وهم مجتمعون عليه، فتكلّم أبو بكر، وتشهّد، وحمد الله، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال: من كان يعبُد محمداً، فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبُد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، وتلا قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ}(2).

فاستيقن الناس كلّهم بموته –صلى الله عليه وسلم- وكأنّهم لم يسمعوا هذه الآية من أن يتلوها أبو بكر، فتلقّاها الناس منه، فما يُسمَع أحدٌ إلا يتلوها"(3).

فلولا أن قيّض الله للأمّة في تلك اللحظات الحرجة أبا بكر لوقع بالأمّة المصائب مالا تُحمد عقباه، فقد كانت فطنة أبي بكر وبلاغته، وقوة فهمه نبراساً تهتدي به الأمّة في أحلك ظروفها، وأشدها قسوة، ومنها احتجاج أبي بكر يوم السقيفة على الأنصار بقوله: "إنّ الله سمّانا (الصادقين)، وسمّاكم (المفلحين)، وقد أمركم أنْ تكونوا معنا حيث كنّا، إشارة إلى قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(4)؛ فتذكّرت الأنصار ذلك، وانقادت له"(5).

وكذلك موقفه من المرتدّين، وقد كان المرتدّون أربعة أصناف: صنف عادوا إلى عبادة الأوثان والأصنام، وصنف اتّبعوا المنبّئين الكذبة، ومنهم: الأسود العنسي، ومُسيلمة الكذّاب، وسجاح التميمة، وصنف أنكروا وجوب الزكاة وجح\وها، وصنف لم ينكروا وجوبها، ولكنّهم أبوْا أن يدفعوها لأبي بكر"(6)، "وقد أشار بعض الصحابة، ومنهم عمر على الصدّيق بأن يترك مانعي الزكاة، ويتألفهم حتى يتمكّن الإيمان من قلوبهم، ثمّ هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصدّيق عن ذلك وأباه"(7)، وقال: "والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حقّ المال، والله لو منعوني عناقاً "الأنثى من ولد الماعز"، كانوا يؤدّونها إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- لقاتلتهم على منعها، وفي رواية: والله لو منعوني عِقالاً: "وهو الحبل الذي يُعقل به البعير"، كانوا يؤدونه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- لقاتلتهم على منعه، قال عمر: فو الله ما هو إلا ان قدر شرح الله صدر أبي بكر، فعرفت أنّه الحقّ"(8).

ولقد كان أبو بكر الصدّيق في هذا الموقف أعمق الناس فهماً لكتاب الله -عزّ وجلّ- إذ أدرك بفهمه الثاقب ترابط أركان الإسلام، فإذا انتقص منها ركن، انتقصت الأركان الأخرى،لذا وثق برباطة جأش في وجه المرتدّين ومانعي الزكاة، ومن هنا استحقّ الصدّيق بفهمه العميق في مواجهة تلك الردّة الطاغية ثناء المسلمين أجمعين، ودعاءهم إلى يوم الدين.

المحور الثاني: نصّان اثنان من كلام الصدّيق–رضي الله عنه- يدلان على بلاغته:

النصّ الأول: كتاب أبي بكر الصدّيق –رضي الله عنه- إلى أهل اليمن يحثّهم على الجهاد في سبيل الله:

وذلك لمّا أزمع على فتح الشام، فاستنفر التس لجهاد الروم، فنفروا إليه، ثمّ رأى أن يكتب كتاباً إلى أهل اليمن يدعوهم فيه إلى الجهاد، ويرغّبهم في ثوابه، فكتب إليهم كتابه هذا: " بسم الله الرحمن الرحيم، من خليفة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- إلى من قُرِئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن، سلام عليكم، إنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

---

(1)ينظر: سورة البقرة، الآية 105.

(2)ينظر: سورة آل عمران، الآية 144.

(3)ينظر: الحنبلي، ابن رجب، لطائف المعارف، ص154.

(4)ينظر: سورة الحشر، الآيتان 6،7.

(5)ينظر: ابن عربي، محمد بن عبدالله، العواصم من القواصم، ص10.

(6)ينظر: المحمود، عبدالرحمن بن صالح، الحكم بغير ما أنزل الله، أحواله، وأحكامه، ص239.

(7)ينظر: ابن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية، ج1، ص315.

(8)ينظر: البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم (6924)، وانظر: صحيح مسلم، رقم (20).

أمّا بعد، فإنّ الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وقال: {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[9]، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم"[10].

يُلاحظ في قوله: "إلى من قُرِئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن"، تقديم المؤمنين على المسلمين؛ لأنّ الإيمان من أعمال القلوب، وفي هذا ترغيب لهؤلاء المؤمنين ليتقبّلوا نبعات ومشقات الجهاد بسهولة ويسر، ونفوس راضية مطمئنة، وفي التنكير في قوله: "سلام عليكم"، دلالة على الحب والشفقة والتقدير والإكرام لأهل اليمن، فالتنكير يدل على تكثير السلام لهؤلاء القوم الكرام، وفي قوله: "فإنّ الله كتب على المؤمنين الجهاد"، يُلاحظ تأكيد أمر الجهاد، ووجوبه على المؤمنين من عدّة جوانب، منها:

الجانب الأول: التوكيد بـ (إنّ)؛ لتعظيم أمر الجهاد، وتبيان خطره في حياة الأمة.

الجانب الثاني: بإيراد لفظ الجلالة (الله) ظاهراً، في سياق حديثه عن الجهاد، وكان من الممكن أن تكون العبارة هكذا: "إنّه كتب عليكم الجهاد"، لكنّه أظهر اسم الجلالة (الله) الجامع لجميع صفات الكمال؛ لإيقاع الهيبة في القلوب، لتنهض بامتثال الأوامر الإلهية، في قتال الأعداء، ومجاهدة الكفرة المشركين.

الجانب الثالث: في التعبير بـ (كتب)، التي هي بمعنى (فرض) و(وجب) زيادة تأكيد على تأكيد لحقيقة الجهاد في النفوس والقلوب المؤمنة.

الجانب الرابع: في تقديم الجار والمجرور، في قوله: "على المؤمنين"، على كلمة (الجهاد)، الذي هو مفعول به للفعل (كتب)، تخصيص، ومعناه: إنّ المؤمن الذي صدق إيمانه هو وحده من ينهض إلى الجهاد. وكلّ إنسان خُوطب بهذا الخطاب يطمح أن يكون من هؤلاء المؤمنين الصادقين المجاهدين"[11].

النصّ الثاني: جزء من كلام للصدّيق قاله في مرضع الذي مات فيه، يُحذّر من الدنيا وفتنتها، أورد ذلك الكلام المبرد في الكامل في اللغة والأدب، نقتطف منه قول الصدّيق في التحذير من الدنيا وزخرفها وفتنتها، يقول: "والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب رقبته في غير حدّ، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا"[12]. صدر هذا الكلام النفيس من الصدّيق، وهو على مشارف الموت، وهو يدل على عمق إحساس أبي بكر بواجب النصح الصادق المخلص لهذه الأمّة، وتنبيهها إلى المهلكة التي تجتث أصولها إذا خاضت غمرات الدنيا، أي عاشت حضارة مادية بحته،كما يُراد لها الآن. ولا يعني النهي عن خوض غمرات الدنيا الذي يدعو إليه الصدّيق أن لا نجاهد الباطل، وأن لا نقيم الحقّ والعدل، وأن لا نعمر الدنيا بالبر والإحسان، على منهج الدين والخلافة الراشدة، بل يعني حب الدنيا الممقوت، والذي يُؤدي إلى التناحر والاقتتال، ومن ثمّ الهلاك والبوار.

ولو وقفنا عند قوله: "فتضرب رقبته"، إذ لم يقل (عنقه)، لأنّ الرقبة فيها إشارة إلى العبودية، وأن يقدّم وهو ذليل، مقهور، مغلوب على أمره. وقوله: "في غير حدّ" تأكيد لهذا الإذلال، وإنّه يُضرب مظلوماً لا يُدفع عنه. نلاحظ بين هاتين الصورتين مقابلة خفيّة، صورة من تضرب رقبتع في غير حدّ، من غير أن ينتصر، ومن غير أن يجد من ينصره، وصورة الخائض في جاهها، وسلطانها، ومالها،وحضرتها، وحلاوتها، وزينتها، وزخرفها، وفتنتها، يقسم أبو بكر على أنّ الأول أفضل منه"[13]، وهذا تحذير في غاية البلاغة من ترف الدنيا، وإيثارها على الآخرة، وعدم التوازن بين العمل للآخرة والأولى معاً، دون تغليب لإحادهما على الأخرى.

المحور الثالث: أبرز الأساليب البيانية في خطبة الصدّيق –رضي الله عنه- لمّا بُويع بالخلافة، وهو قسمان:

القسم الأول: خطبة أبي بكر الصدّيق –رضي الله عنه- لمّا بُويع بالخلافة، "تكلّم أبو بكر –رضي الله عنه- بعد أن بايعه الناس بالخلافة فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله ثمّ قال: أما بعد، أيّها الناس، فإنّي قد وُلّيت عليكم، ولست بخيركم، فإنْ أحسنت فأعينوني، وإنْ أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أرجع إليه حقّه، -إن شاء الله- والقوي فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحقّ منه –إن شاء الله-. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"[14].

---

(9)ينظر: سورة التوبة، الآية 41.

(10)ينظر: عبده، الأمام محمد، خطب أبي بكر، ص76-77.

(11)ينظر: حسني، عادل، طرائق المعاني، من ص187- 191 بتصرّف.

(12)ينظر: المبرد، أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، ج1، ص11.

(13)ينظر: أبو موسى، محمد محمد، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، من ص244-246 بتصرّف.

(14)ينظر: وردت خطبة الصدّيق هذه في أكثر من مصدر، قديم، ومرجع حديث، فمن المصادر القديمة التي وردت فيها:

أ- عبدالرازق، الحافظ الكبير أبو بكر عبدالرازق بن همّام الصنعاني، المصنّف، ج11، ص336، رقم (20702).

ب- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ج4، ص274.

ت- ابن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية، ج6، ص305.

القسم الثاني: أبرز الأساليب البيانية في خطبة الصدّيق –رضي الله عنه- دراسة تحليلية:

الأسلوب الأول: الإيجاز والإطناب والمساواة.

الأسلوب الثاني: إرسال المثل.

الأسلوب الثالث: التوكيد.

الأسلوب الرابع: التقديم والتأخير.

الأسلوب الخامس: المزاوجة.

الأسلوب السادس: المطابقة والمقابلة معاً.

الأسلوب السابع: الفصل والوصل.

الأسلوب الثامن التشبيه.

الأسلوب الأول: الإيجاز والإطناب والمساواة:

لقيت هذه الأساليب البلاغية عناية كبيرة من النقاد العرب، وبخاصة البلاغيين منهم،والإيجاز عندهم هو: " عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، مع الإبانة والإفصاح؛ ليسهل تعلقها في الذهن، وتذكّرها عند الحاجة"[15].

ولقد نوّه العلماء بأهمية الإيجاز، يقول الجاحظ: "ربّ كلمة تُغني عن خطبة"[16]. وذهب العلماء إلى أنّ الإيجاز قسمان: "إيجاز حذف، وهو ما حذف منه كلام، وإيجاز قِصَرٍ، وهو ما زاد فيه معناه عن لفظه"[17].

وذهب فريق من العلماء إلى أنّ البلاغة هي الإطناب، واعتبر الإطناب "كلّ ما زاد على المدلول، شريطة أن تكون الزيادة ذات قيمة بلاغية"[18]. ومن العلماء من أدخل المساواة في باب الإيجاز، قائلاً: "إنّ كلام العرب قسمان: طويل، وخو الإطناب، وقصير، وهو الإيجاز، ولا ثالث لهما"[19]. والذي يسترعي النظر في خطبة الصدّيق ذلك الإيجاز غير المخلّ، ففي أربعة أسطر فقط من الكلام، حدّد الصدّيق سياسته المستقبلية مع الرعية، وفيما يقرب من ثمانين كلمة رسم خطته الإدارية، كجنباً الناس الملل والسأم، وموفّراً علهم الوقت، ومدّخراً لهم موفور الكرامة، ولم يعتبر الصدّيق سماع الناس له غرامة يجب أن يؤدوها ثمناً لطاعتهم له، ولم يلزمهم بالمكوث طويلاً لسماع خطبته، والتصفيق الحادّ لمقولته.

وجاءت فقرات خطبته متماسكة، يأخذ بعضها برقاب بعض، وكأنّ خطبته بشرٌ سويٌّ، خُلِق في أحسن تقويم، فلو أراد أي بليغ أن يُضيف إليها شيئاً فإنّه ينقلب إليه قلمه خاسئاً وهو حسسير، ولو أراد أن ينقص منها شيئاً، ارتدّ على أدباره، وعجز عن ذلك التدبير.

وتطلّ علينا خطبة الصدّيق متوشّحة بوشاح التواضع الجمّ، إذ يقول في بداية خطبته: "قد وليت عليكم ولست بخيركم"، فهو ينفي عن نفسه أن يكون خير رجل في الأمة، مع أنّه ثبت بالدليل القاطع أنّ أبا بكر الصدّيق هو: "خير الناس بعد رسول الله –صلى الله عليه وسلم-"[20].

فمن هذا المدخل الموفق ينتقل إلى القول: "إنْ أحسنت فأعينوني، وإنْ أسأت فقوّموني"، فقد علّق أمرين (الإعانة والتقويم)، على شرطين هما: (الإحسان والإساءة)، فإن أحسن فجزاء الإحسان الإعانة، وإن أساء فجزاء الإساءة التقويم. ثمّ أردف ذلك بقوله: "الصدق أمانة، والكذب خيانة"، ننظر في هذا الكلام البليغ الحكيم، الذي لا يجري على اللسان بعد القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف كلام أحسسن ةلا أعذب ولا أصدق منه، ولنقارن هذا الكلام بمواعيد عرقوب التي تُقْطَع للناس وتكون النتيجة عكس ما يُقال. ولننظر -أيضاً- إلى قوله: "والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقّه –إن شاء الله-، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقّ منه –إن شاء الله-".

فهذه كلمات قليلة حملت من المعاني ما تعجز عن إبرازه خطب كثيرة، فالضعيف المظلوم عند الصدّيق هو القوي حتى يُعيد إليه حقّه المهضوم، والقوي الظالم الغشوم، هو الضعيف، حتى يأخذ الحق منه للضعيف المظلوم. ولو نظرنا في ختام الخطبة إلى ذلك الإنسجام بين مقدّمتها وخاتمتها، في قول الصدّيف: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم". فطاعة الرعية له

ث- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص68

ومن المصادر الحديثة التي أوردتها:

أ- شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي، ج3، ص57.

ب- العمري، أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، ص53.

(15)ينظر: الصعيدي، عبدالمتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، ج2، ص118.

(16)ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج2، ص7.

(17)ينظر: الصعيدي، عبدالمتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، ج2، ص118.

(18)ينظر: قصوري، إدريس، أسلوبية الرواية، مقاربة أسلوبية لرواية زقاق المدق، لنجيب محفوظ، ص165.

(19)ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، البان والتبين، ج2، ص7.

(20)ينظر: ديوان أبي بكر الصدّيق، ص114، نقلاً عن المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، لابن الجوزي.

مقرونة عنده بطاعته لله –عوّ وجلّ- ولرسوله –صلى الله عليه ةسلم- إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ذلك هو قانون الصدّيق، فطاعته تدور مع طاعة الله –عزّ وجلّ- ورسوله –صلى الله عليه وسلم- وجوداً وعدماً. وانظر في نهاية خطبته إلى سرعة الانتقال من القول إلى العمل، في قوله: "قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

وهكذا فخطبة الصدّيق حازت قصب السبق في الإيجاز غير المخلّ، وربطت القول بالعمل، بالقيام إلى الصلاة، التي بها تتنزل الرحمات، وتُستجاب الدعوات.

وإذا حاول الباحث مقارنة هذه الخطبة مع خطب ساستنا اليوم، فإنّه يجد تلك الخطب تمتاز بالإطناب المملّ، مهما حاول المتكلّم تسويغها للناس، فسرعان ما تنكشف مراميها للناس، فينفرون منها. وقد يرصد الباحث في هذه الخطب غياب الهدف، وإلقاء الكلام على عواهله، كيفما اتّفق، وتدل على أنّ المتكلّم موجود في طرف، والسامع في طرف آخر،والصلة بينهما مقطوعة وممنوعة، لذا فمن الصعوبة بمكان أن يكون بوسع هؤلاء الساسة أنْ يتزحزحوا عن هيمنتهم على الناس، وهنا يصبح كلامهم ثقيلاً على النفوس، يتلقّاه السامعون بالسآمة والملل، فمن الضروري وجود عنصر الصدق في كلامنا، وحياتنا، وخطبنا، كما هو ماثل عند الصدّيق، لتصبح للمتكلّم حاكماً أو محكوماً مصداقية تجعل الخطيب يتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع الناس، حتى يكلّمهم بما يطيقون، ويَصْدُقُهم فيما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، وألّا يغشّهم ويُزوِّر لهم الكلام، فيفقدوا ثقتهم به.

الأسلوب الثاني: إرسال المثل:

إرسال المثل هو: "أن يأتي الشاعر في بعض بيت ما يجري مجرى المثل من حكمة، أو نعت، أو غير ذلك، ممّا يَحْسُنُ التمثيل به"[21]. وهو نوع لطيف من علم البديع، "وهو أن يوظّف المتكلّم بنية مسكوكة في كلامه، سواء أكانت مثلاً، أم كانت ما يجري مجراه من حكمة، أو وصف، أو نحو ذلك، ممّا يَحْسُنُ التمثيل به"[22].

وللتمثيل قيمة دلالية في كلّ أصناف الخطاء، حتى أنّ هنالك من الباحثين مَن ذهب إلى أنّ البنية الذهنية لتفكير الإنسان تطغى عليها الأمثال، وأنّ الإنسان يعيش غالب أوقاته بالأمثال أو بإيعاز منها"[23].

ويظهر إرسال المثل جليّاً في قول الصدّيق: "الصدق أمانة، والكذب خيانة"، فهذا الكلام البليغ يسري في النفوس سريان المثل السائر، والحكمة المتناقلة بين الناس. ليس هذا فحسب، بل إنّ خطبة الصدّيق كلّها ترتقي إلى مرتبة الأمثال المتداولة، والحكم المتوارثة التي تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل، وتصلح لأنْ تكون ركناً ركيناً، وأصلاً أصيلاً، وأساساً سليماً لمبادئ الحكم الرشيد، ولسياسات الدول والأمم العادلة.

الأسلوب الثالث: التوكيد:

التوكيد هو: "تحقيق المعنى في النفس بإعادة لفظ، أو معنى"[24]. وجدوى التنوكيد: "أنّك إذا كرّرت فقد قررت المؤكّد، وما علق به في نفس السامع، ومكّنته في قلبه، وأمطت شبهة ربما خالجته، وتوهّمت غفلة عمّا أنت بصدده فأزلته"[25]. من هنا كان التوكيد مبحثاً بلاغياً مرموقاً يمنع الشكَّ والإبهام الذي يمكن أنْ يشوب الكلام، لذا نجد لهذا الأسلوب البياني نصيباً لا بأس به في خطبة الصدّيق، ومن ذلك قوله: "أمّا بعد، أيّها الناس فإنّي قد ولّيت عليكم ولست بخيركم"، إذ يُلاحظ الابحث أنّ الصدّيق قد استهلّ كلامه بالتوكيد في قوله: "فإنّي قد وليت عليكم"، إذ استخدم في تأكي ولايته وخلافته بـ (إنّ) المؤكّدة، مكسورة الهمزة، مشدّدة النون، وهي الأصل في التوكيد، وقد أجمع علماء العربية على دلالتها على التوكيد"[26].

ولمّا كان أمر الخلافة خطيراً جدّاً، وكان الخلاف على الخلافة، أو الخروج عليها، كما حدث في الردّة أمراً أشدّ خطراً، مما يتولّدعنه من فوضى، وذهاب لقوة الأمة وهيبتها، ومن ثمّ استئصالها برمتها بسبب تنازعها، لمّا كان هذا الأمر كله بهذا الخطر أكدّ الصدّيق أمر خلافته وولايته حسماً للنزاع، وقطعاً لدابر الشرّ من جذوره، حتى لا تتطرق الشكوك، أو الوساوس إلى نفوس الطامعين في الخلافة، والراغبين في إثارة الفتن والمنازعات، وهذا موقع يحسن فيه التوكيد، بل يجب فيه التوكيد ليتناسب مع الحزم والعزم والجزم، والقطع في الأمور وسرعة إنقاذها، وعدم تعليقها، حتى لا يلج الشيطان وأتباعه إلى النفوس المريضة فيسوّل لها أمر التسلق على الخلافة لإفسادها، والاستيلاء عليها ممن يستحقّها، وهو أهل لها.

وتعزّز هذا التوكيد بـ (إنّ) عند الصدّيق، وبالتوكيد بـ (قد)، التي تُفيد التحقيق، وأجمع العلماء كذلك على دلالتها على التوكيد"[27]. وبعد أن اطمأنّ الصدّيق إلى ثبات الخلافة، وقهر وساوس الشيطان حولها، انتقل إلى تةكيد آخر في غاية الحكمة، درأ به عن نفسه حبّ الذات

(21)ينظر: عكاوي، إنعام فوّال، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص59.

(22)ينظر: قصوري، إدريس، أسلوبية الرواية، مقاربة أسلوبية لرواية زقاق المدق، لنجيب محفوظ، ص242.

(23)ينظر: المصدر نفسه، ص242 بتصرّف.

(24)ينظر: الحيدرة اليمني، كشف المشكل في علم النحو، ج1، ص472.

(25)ينظر: الفيروز أبادي، مجدي الدين بن يعقوب، بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، ج5، ص264.

(26)ينظر: ابن مالك، شرح عمدة الحافظ، ص224. ابن يعيش، شرح المفصّل، ج3، ص59، وغيرهما.

(27)ينظر: سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، ج4، ص223. الفرّاء في معاني القرآن، ج1، ص282، وغيرهما

والأنانية، وطيّب نفوس الناس به، قائلاً: "ولست بخيركم"، فجاء التوكيد بحرف الجرّ الزائد (الباء) لنفي ميزته عن غيره، تواضعاً منه، ومساواة لنفسه مع غيره، ومن ساوى أخاه بنفسه فما ظلم. وبعد أنْ سكنت نفسه إلى تلك التوكيدات انتقل إلى موضوعات الخطبة الأخرى، مطمْئِناً الناس إلى إقامة العدل وأركانه، ومحاربة الظلم، وهدم بنيانه.

الأسلوب الرابع: التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير هو: "جعل اللفظ رتبة قبل رتبته الأصلية، أو بعدها؛ لعارض اختصاص، أو أهمية، أو ضرورة"[28]. والتقديم والتأخير يعدّ من الأساليب البلاغية الهامّة، والتي لها أثر واضح في الكشف عن المعاني، ومعرفة حقيقة النظم، ورتب الكلام، وأسرار الخطاب، يقول عبدالقاهر الجرجاني فيه: "هذا باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، لا يزال يفترّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّتنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قُدّم منه شيء، وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"[29]. وقال الزركشي في أهميته: ""هو أحد أساليب البلاغة، فإنّهم أتَوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام، وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق"[30].

والتقديم والتأخير شكل من أشكال العدول اللغوي، الذي تترتب عليه فائدة دلالية، أو تأثيرية، أو إيقاعية، أو جميعها، مضافة إلى المعنى الأساسي للعبارة. وهو قسمان: الأول يكون بالخروج عن الترتيب الوضعي للتراكيب اللغوية، والثاني: يكون بحس بمقتضيات الأحوال. والتقديم والتأخير الوارد في خطبة الصدّيق من النوع الثاني؛ إذ يُلاحظ أنّ الصديّق يُقدم الإحسان على الإساءة في قوله: "فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني"، وذلك لفضيلة الإحسان ورذيلة الإساءة، وكذلك يقدّم الصدق على الكذب في قوله: "الصدق أمانة، والكذب خيانة" للسبب السابق ذاته.

وكذلك يقدّم الضعف على القوي في قوله: "والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقّه –إن شاء الله-، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقّ منه –إن شاء الله-، وذلك للرحمة بالضعيف والأخذ بيده، وإنصافه من القوي. ويقدّم كذلك لفظ الجلالة (الله) في قوله: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم" على لفظ الرسول –صلى الله عليه وسلّم- لعظيم قدر الله –عزّ وجل-، وعظمة اسمه العظيم (الله)، المستجمع لأنواع الكمال جميعها.

وهكذا فإنّ هذا الأسلوب من التقديم والتأخير زاد من جمال خطبة الصدّيق، وأظهر قوة بيانه، وبلاغته المتفوقة، وحُسن تعبيره.

الأسلوب الخامس: المزاوجة:

المزاوجة هي: "أنْ تزاوج بين الكلمات والجمل، بكلام عذْب، وألفاظ حلوة"[31]، أو هي "أن يزاوج المتكلّم بين معنيين في الشرط والجزاء، بأنْ يجعل المعنيين الواقعين في الشرط والجزاء مزدوجين، في أنْ يُرتّب على كلّ منهما معنى رتّب على الآخر"[32]. وأسلوب المزاوجة بين الشرط والجزاء يُشبه كثيراً أسلوب الطبيب الحاذق، الذي يهتمّ بالاحتمالات المتعدّدة التي تنجم عنها الحالة المرضية، والإمكانات الممكنة الكفيلة بالمعالجة.

وهكذا نجد الصدّيق في خطبته، ففي قوله: "إنْ أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني"، يزاوج بين الإحسان والإعانة، وبين الإساءة والتقويم، فكلّ منهما يرتبط بآخر ارتباط الروح بالجسد، وفي قوله: "الضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقّه –إن شاء الله-، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه -إن شاء الله-، يُلاحظ الباحث المزاوجة فيكلام الصدّيق بين الضعف والقوّة، وبين القوّة والضعف، على نحوٍ لطيف عجيب، إذ يستتبع كلّ لفظ من تلك الألفاظ اللفظ الذي جاء بإزائه، ويطلبه طلب الزوج للزوجة في السكن إليها، والألفة بها.

وفي قوله: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لكم عليّ"، نلاحظ مزاوجة الصدّيق بين الطاعة لله –عزّ وجلّ- ولرسوله –صلى الله عليه وسلّم- وبين معصيتهما، وهذه المزاوجة لطيفة تدلّ على تعلّق الصدّيق بالله –عزّ وجلّ-، ورسوله –صلى الله عليه وسلّم-، تعلّقاً متيناً، وهو في الوقت ذاته يدعو إلى أنْ تكون علاقة الطاعة له تنبع من طاعتهما، وعصيانه ينبع من عصيانهما.

الأسلوب السادس: المطابقة والمقابلة معاً:

(28)ينظر: الطوفي، سليمان بن عبدالقوي، الإكسير في علم التفسير، ص154.

(29)ينظر: الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الإعجاز، ص82.

(30)ينظر: الزركشي بدرالدين، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص333.

(31)ينظر: عكاوي، إنعام فوّال، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص648.

(32)ينظر: المصدر السابق نفسه، ص648.

المطابقة هي: "أنْ تأتيَ بالمعنى وبضدّه في الكلام"[33]، أمّا المقابلة فهي: "إيراد الكلام في مقابلته بمثله في المعنى واللفظ، على جهة الموافقة، أو المخالفة"[34] وقد أدخل جماعة المقابلة في المطابقة، وهو غير صحيح، فإنَّ المقابلة أعمُّ من المطابقة، وهي التنظير بين شيئين فأكثر، وبين ما يُخالف، وما يُوافق. فقولنا: وما يُوافق صارت المقابلة أعمّ من المطابقة"[35].

وهكذا فإنّ المقابلة: هي أن تجمع بين دالّين مُتطابقين، سواءٌ أكان التقابل صريحاً أم غير صريح، وسواءٌ أكان بالضدّ أم بالسلب، أم بالإيجاب، أم بغير ذلك. وتختلف المقابلة عن المطابقة في كونها تقابل بين دالّين تكون مدلولاتهما متضادّة، أو غير متضادّة.

وقد حوت خطبة الصدّيق من المقابلات ألطفها، ومن المطابقات أجملها وأكملها، فوقعت المقابلة عنده بين (الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أرجع إليه حقّه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقّ منه). أمّا الطباق فوقع بين قوله: (أحسنت، وأسأت، وبين الصدق، والكذب، وبين الأمانة، والخيانة، وبين الضعيف، والقوي، وبين الطاعة، والعصيان، وبين أطعت، وعصيت).

وهذه المطابقات والمقابلات الرائعة بين العناصر البلاغية السابقة، في خطبة أبي بكر الصدّيق مؤشّر أسلوبي يعزّز توجّه الخليفة الراشد في الحكم، وغايته من الخلافة، فالحكم امتحان عسير للحاكم، ليُرى أيحسنُ فيما خوّله الله تعالى، فتطيب سريرته، وتُحمد سيرته، أم يُسيء ويظلم فتسوَّد صحيفته عند خالقه، وعند الخلق. وهنا يهرع الخليفة الراشد بعد استمداد العون من الله تعالى، إلى الرعية، حتى تُعينه على الحقّ وأدائه إن أصاب، وأن تصوّبه وتقوّمه إن هو حاد عن الحقّ.

ويلمس الباحث في هذا التطابق ذلك الترابط المتين بين شخصية الصدّيق والصدق، فالصدق هو الأمانة العظمى التي قامت السماوات والأرض عليها، والخيانة هي الطامّة الكبرى التي تؤدّي بالحاكم والمحكوم إلى الهاوية. ومفتاح الأمانة ومادّتها الصدق، ومعدن الخيانة وبابها الكذب.

هذا في مجال أخلاق الحاكم، وأمّا في مجال أداء الحقوق إلى أصحابها، وإقامة ميزان العدل، فمن المعروف أنّه قد اقتضت السنّة الإلهية في الخلق بوجود الضعيف الذي يُغتصب حقّه، والقوي الظالم الذي يتسلّط على الضعيف المستضعف هو القوي بالإنصاف، وإعادة حقّه إليه.

ويختم الخطبة بالمقابلة والمطابقة بين المعصية والطاعة، فطاعة الخليفة موقوفة على طاعة الله –عزّ وجلّ- ورسوله –صلى الله عليه وسلّم- وعصيانه مرهون بعصيان الله –عزّ وجلّ-، ورسوله –صلى الله عليه وسلّم-.

وبالنظر إلى الجمل التي وردت فيها المقابلات في خطبة الصدّيق، وجدناها تحتوي على خمس بنى تركيبيّة متقابلة هي: الإحسان وتقابله الغساءة، والصدق ويقابله الكذب، والأمانة ويقابلها الخيانة، والضعف وتقابله القوة، والطاعة ويقابلها العصيان. وإذا أنعمنا النظر في هذه المقابلات ألفيناها توزّع في خطبة الصدّيق توزيعاً دقيقاً.وتتركّب تركيباً منظّماً، تُضفي على الخطبة جمالاً وحُسسناً، وتقوّي معاني الجمل الواردة فيها، وتلفت أنظار السامعين إلى ما تتضمّنه هذه الخطب من دلالات فكرية عميقة، ومؤشّرات دينية دقيقة، ترتبط بها معاني الوحدات الكلامية، وعليها يُعوّل، وهذه المقابلات تؤكّد الوحدة العضوية والموضوعية في خطبة الصدّيق، فتجعل من كلامه أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية شديدة الارتباط بعضها ببعض.

وهذه المقابلات تجعل للكلام إيقاعاً صوتياً خاصاً ومميّزاً، يُحسن وقعه في الأذن، ولا يجد السامع أيّ حرج في تتبّعه، لا بل ترتاح النفس وتطمئن عند سماعه. وهكذا تصبح المقابلات في خطبة الصدّيق عنصراً أساسياً يدخل في تركيب الخطبة وبنائها، ناهيك عمّا يُساند هذه المقابلات من أمر ونهي، وخبر وإنشاء، وإثبات ونفي، وتقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وفصل ووصل، إلى غير ذلك مّا هو من متمّمات المقابلات في هذه الخطبة.

وإتقان المقابلات عند الصدّديق سجيّة من سجاياه البلاغية، وشأن من شؤونه البيانية، تجعل كلامه أشبه بالسحر، إذ تنفذ من الآذان إلى القلوب، فتنشرح له النفوس، وتسرع في الانقياد إليه انقياد السفينة للهواء الليّن الهيّن الطيّب، في المحيط الهادئ العميق.

الأسلوب السابع: الوصل والفصل:

الوصل هو: "عطف جملة على أُخرى"[36]، أمّ الفصل فهو: " ترك الربط بيم الجملتين، إمّا لأنّهما متّحدتان صورة ومعنى، أو بمنزلة المتحدتين، وإمّا لأنّه لا صلة بينهما في الصورة، أو في المعنى"[37]، من هنا فالوصل هو العلم بمواضع العطف بين الجمل، ومعرفة كيفية إيقاع حروف العطف في موقعها، والفصل هو تركها عند عدم الحاجة إليها. والوصل والفصل هما إحدى الأساليب البلاغية التي لا تخلو منهما أيّ خطاب، أو كلام، ونظراً لأهميتهما قال العلماء: "إنّ البلاغة هي معرفة الوصل والفصل"[38].

(33)ينظر: عكاوي، إنعام فوّال، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، 597.

(34)ينظر: المصدر السابق نفسه، ص755.

(35)ينظر: المصدر السابق نفسه، ص656.

(36)ينظر: عكاوي، إنعام فوّال، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص120.

(37)ينظر: المصدر السابق نفسه، ص120.

(38)ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج1، ص88.

وعند النظر في خطبة الصدّيق في ضوء هذا الأسلوب نجد أنّ الصدّيق يبدأ خطبته بقوله: أمّا بعد، وهذه اللازمة في الخطب الموروثة عن النبي –صلى الله عليه وسلّم- يجعل الصدّيق منها محفّزاً ومدخلاً لحديثه الموجّه للأمّة، ثمّ يمضي بعد ذلك من خلال استخدام أسلوب الوصل بالواو، والفصل بالفاصلة، وإسقاط الواو إلى إحكام الربط بين مكوّنات خطبته التركيبية.

ومن الواضح أنّ أسلوبي المقابلة والمطابقة في خطبته يستدعيان الارتكاز على الوصل والفصل؛ لذلك لا يتوانى الصدّيق في الربط بين عناصر خطبته، ما دام هذا الربط ضرورياً، حيث يقول –رضي الله عنه-: " ... أيّها الناس فإنّي قد ولّيت عليكم ولست بخيركم ... والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقّه –إن شاء الله- والقوي فيكم ضعيف عندي حى آخذ الحق منه –إن شاء الله-...".

وكذلك لا يتوانى في الفصل بين عناصر خطبته إذا كان هذا الفصل لازماً، ويتطلبه السياق، يقول: "... الصدق أمانة، والكذب خيانة، فاصلاً هذه الجملة عن سابقتها، ويمضي قائلاً في آخر خطبته: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

ويرد أسلوبا الوصل والفصل في خطبة الصدّيق متعادلين ومتوازنين على نحو عجيب، يجعل من خطبته آية في المتانة، ودقّة المعنى وسداده، واتّفاقه مع الغرض الذي سيقت من أجله الخطبة. وقد ردّ محمد العمري في تفسير ظاهرة التوازن بين الفواصل وأقسام الكلام في الخطاب الديني إلى ما للفواصل من قوّة إقناعية، حيث يقول: "وهذا الارتباط بين الدين والصناعة الصوتيّة يُبيّن وظيفة الإيقاع الإقناعية، ذلك أنّ توقيع الكلام وتوازيه يكاد يكون حجّة على صدقه"[39].

الأسلوب الثامن: التشبيه:

يعدّ أسلوب التشبيه من أساليب البيان القديمة قِدَم التعبير الإنساني، وذلك لأنّه أقرب وسيلة للإيضاح والإبانة، وأقرب وسيلة لتقريب المعاني البعيدة. وفائدة التشبيه كما يقول أرسطو: "إنّه يزيد في جمال الأسلوب، ويُثير اللذة والتشويق في النفس"[40].

ولم يخفَ على العرب فضل التشبيه في إظهار المعاني في أبرز صورها، لذا كثر وروده في كلام العرب، يقول المبرّد: "لو قال قائل: إنّ التشبيه هو أكثر كلام العرب لم يبعد"[41]. ويراه قدامة بن جعفر: "من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم"[42]. وقال أبو هلال العسكري في شرفه: "وقد جاء عن القدماء، وأهل الجاهلية من كل جيل ما يُستدلّ به على شرفه، وفضله، وموقعه من البلاغة بكل لسان"[43].

ويقول عبدالقاهر الجرجاني في تبيان مكانته: "وهل تشكّ أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين، حتى يختصر بُعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المُشائم والمُعرق، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة ويُنطق لك الأخرس، ويُعطيك البيان من الأعجم، ويُريك الحياة في الجماد، ويُريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين"[44].

ويرى ابن الأثير أنّ التشبيه يجمع ثلاث صفات هي: "المبالغة، واليان، والإيجاز"[45]. ونظراً لأهمية التشبيه جعله السكاكي "الأصل الأول من علم البيان"[46]. من هنا كان التشبيه مقياساً وميزاناً دقيقاً للكشف عن قدرة البليغ في فن القول، والخطيب في فن الإلقاء، وهو من أقرب الأساليب البيانية انسجاماً وتوافقاً مع بنية الخطاب الديني، والتفكير العقدي لعدّة أسباب، منها:

الأول: إنّ التشبيه يقوم على مقارنة صريحة بين المرئي واللامرئي، فهو من هذه الناحية يُقدّم إمكانية وافرة لقيام مقارنة حقيقية بين الأشياء، دون اللجوء إلى التأويل أو التفسير.

الثاني: إنّ وظيفة الخطاب الديني الإصلاحية والوعظية تقوم على الوضوح، وعدم اللجوء إلى الغموض في الكشف عن الحقيقة التي يريد المتديّن إيصالها للناس.

الثالث: إنّ الغاية التربوية التوجيهية في الخطاب الديني تستلزم الإفصاح أكثر من الإضمار والغموض، وتقريب الأمور للمخاطبين، دون التبعيد والإخفاء والتعمية.

ولهذه الاعتبارات كلّها، ولغيرها حظي التشبيه بعناية فائقة في الخطب والخطاب الديني، وأصبح عنصراً ريساً في الخطاب الديني. "وحقيقة التشبيه تقوم على إلحاق دال بدال آخر بواسطة أداة التشبيه، والجامع بينهما لا يصل حدّ المطابقة"[47].

---

(39)ينظر: العمري، محمد، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص108.

(40)ينظر: أرسطوطاليس، الخطابة، ص212.

(41)ينظر: المبرّد، أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، ج1، ص69.

(42)ينظر: ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، ص58.

(43)ينظر: العسكري، أبو هلال، الصناعتين، ص231.

(44)ينظر: الجرجاني، عبدالقاهر، أسرار البلاغة، ص99.

(45)ينظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص396.

(46)ينظر: السكاكي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ص157.

(47)ينظر: قصوري، إدريس، أسلوبية الرواية، مقاربة أسلوبية لرواية زقاق المدق، لنجيب محفوظ، ص205 بتصرّف.

وهذا التشبيه تنمّ عن وجود أربعة أطراف لإجراء عملية التشبيه، وهي: ركنا التشبيه، وهما: المشبه، والمشبه به، وأداة التشبيه، وأخيراً الشيء الجامع بين ركني التشبيه، وهو وجه الشبه، غير أنّ إجراء عملية التشبيه لا تستلزم بالضرورة حضور عناصره الأربعة مجتمعة. فقد يحدث أن يتغيّب أحدهما كلما كان من الميسور إدراكه، وما يمكن الاستغناء عنه من بين هذه العناصر الأربعة، هو الأداة، أو وجه الشبه، أو هما معاً، مادام من الممكن إجراء التشبيه بدونهما، أما ركنا التشبيه الأساسيان وهما المشبه والمشبه به فلا يمكن الاستغناء عن أيّ منهما، لأنه لو تمّ ذلك لم يعد هناك أيّ مسوّغ للحديث عن التشبيه، ومن هنا كان للتشبيه أوجه وفروع متعدّدة ومتشعّبة، لا مكان هنا لتفصيل القول فيها.

وبعد هذه المقدمة في حقيقة التشبيه، وأهميته من المفيد تفحّص التشبيه الوارد عند الصدّيق في خطبته سابقة الذكر، إذ ورد التشبيه عنده في موطنين الأول: في قوله: "الصدق أمانة، والكذب خيانة". حيث شبّه الصدق بالأمانة في الحُسن، والكذب بالخيانة في القبح. وقد حذف وجه الشبه، وأداة التشبيه، وهذا التشبيه هو ما يُسمّى بـ(التشبيه البليغ). وقد زاد من بلاغة التشبيه، ورفع من قيمته في الإفصاح عن تلك المقابلة والمطابقة الرائعة بين الصدق والأمانة، والكذب والخيانة.

ومن الممكن تسجيل هذه الملحوظات على هذا التشبيه، وهي:

الأولى: عند تدقيق النظر في هذا التشبيه لوحظ أنّه تشبيه معقول بمعقول، فالصدق والأمانة هما من المعقولات التي تسعف العقول فتجعلها مستقيمة على منهج الحقّ، والكذب والخيانة هما من المعقولات التي تمحق العقول وتلغي الألباب، ويخرج بالإنسان عن إنسانيته إلى الحيوانية والشهوانية التي لا تحمد عقباها، لذا حظيت هذه القيم بأهمية خاصة عند الصدّيق.

الثانية: جاء هذا التشبيه متّسقاً ومنسجماً تماماً مع الغاية التي يرمي إليها الصدّيق، والشخصية والنفسية التي يتجلّى بها الصدّيق، فالصدق أمانة كبرى في الحسن، وهو أصل الاستقامة في الأمور كلها، والكذب خيانة عظمى، ورذيلة في القبح، ولا يأتي الكذب إلا من اعوجاج النفس، وحبها للدنيا والشهوات الفانية، وإيثارها على الآخرة، وهنا يُعطي الصدّيق الأمة درساً عظيماً في الصدق؛ لأنّه صادق، وينبع الصدق من نفسه الراضية المرضيّة.

الثالثة: إنّ هذا التشبيه قد جاء موجزاً ،يحمل من المعاني العظيمة والكثيرة في ألفاظ يسيرة وقليلة. ورغم إيجازه إلا أنّه جاء واضحاً وضوح الشمس في رائعة السماء، وهذا الأمر طبيعي فهو يصدر عن نفس الصدّيق، التي تمتاز برهافة الحس، وصدق القول، والعمل، وأمانة السلوك، وهذه أجزاء من بلاغة وفضائل الصدّيق الكثيرة.

أما الموطن الثاني الذي ورد فيه التشبيه عند الصدّيق في قوله: "والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقّه –إن شاء الله- ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقّ منه –إن شاء الله-، فإننا نجد تشبيهاً بليغاً آخر، وهو في تشبيه الضعيف بالقوي حتى يُرجع إليه حقّه، وفي تشبيه القوي بالضعيف حتى يُؤخذ الحقّ منه ويُعاد للضعيف.

وهذا التشبيه يوضّح السياسة العامّة للصدّيق التي سوف يسير عليها في مدّة حكمه، وهي سياسة الضرب بيد من حديد على يد القوي الظالم، والأخذ بيدٍ من حرير على يد الضعيف المظلوم.

والتشبيه ورد في خطبة الصدّيق متّفقاً تمام الاتفاق مع المسؤولية الخطيرة التي يشعر بها الصدّيق في تحمّل أعباء الخلافة، وفي إقامة العدل، وفي ملاحقة الأقوياء الظلمة، وإنصاف الضعفاء المظلومين، ومن المعلوم أنّ أمّة لا يأخذ فيها الضعيف حقّه من القوي لا يبارك الله فيها.

وهكذا فالصدق يشيع في الرعية والطمأنينة، والعدل يبث فيها الأمن والأمان، والطمأنينة والأمان هما أساس السعادة في الدارين، وغيابهما يؤدّي بالأمة إلى البوار في الاثنتين، لذا جاء التشبيهان واضحين بليغين في خطبة الصدّيق.

الخاتمة:

وأخيراً، يتضح من تحليل الأساليب البيانية في خطبة أبي بكر الصدّيق –رضي الله عنه– أنّها تمثل نموذجاً فريداً للسياسة العادلة والبلاغة الفائقة. فليس لحاكم أن يُعبّر عن العدل بين الناس بأبلغ أو أصحّ أو أوجز من هذا الكلام، ولا يستطيع باحث أو أديب أن يصف قيمها الجليلة كما فعل الصدّيق.

وتزداد قيمة الخطبة بلاغة وتألقاً إذا علمنا أنّها جاءت في زمن يحتاج فيه الناس إلى قائد صادق يدرك ما يقول ويقول ما يعي، ويمنح للكلام قدسيّة ووظيفة أخلاقية. فقد جمع الصدّيق بين الخليفة العادل والخطيب البليغ، فأسس سنة رشيدة للخلفاء من بعده، وأثبت أنّ المنطق العقائدي السليم هو الذي يولّد خطاباً بلاغياً قويماً، يرسم رؤية الأمّة لمستقبلها، ويوجهها نحو العدل والطمأنينة والأمن، بما يسهم في إسعادها في الدارين.

النتائج:

لقد أبرزت دراسة بلاغة الخطاب عند أبي بكر الصدّيق –رضي الله عنه– في خطبة مبايعته بالخلافة، مدى تمكنه من فنون البلاغة العربية، ومدى أثر القرآن الكريم في بناء خطاب متماسك وفعال، يعكس حكمة الصدّيق وبعد نظره السياسي والاجتماعي. وأظهرت الدراسة أن الصدّيق استخدم أساليب بلاغية متنوعة، من تكرار ومقابلة، وتشبيه واستعارة، بما يخدم أهدافه في توجيه الرعية، وتهيئة النفوس لقبول المسؤولية والخلافة، مع المحافظة على إيجاز الكلام وعدم الإطالة المملة. كما تبين أن الخطبة جاءت متزنة بين الجانب الإيماني والتوجيهي والسياسي، مما يجعلها نموذجاً حياً للخطاب الإسلامي الراشد.

إن ما توصلت إليه الدراسة يؤكد أن البلاغة ليست مجرد مهارة لغوية، بل أداة لإدارة الحكم والتأثير على الجماهير، وأن دراسة خطب الصحابة، خاصة أبي بكر الصدّيق، تمثل مرجعاً هاماً لفهم فنون القيادة والتوجيه في الإسلام المبكر.

التوصيات:

ولقد توصّلت الدراسة إلى هذه التوصيات، التي تمخّضت عن الدراسة، وهي:

1- إجراء دراسات أسلوبية متخصصة في خطب الصحابة، لا سيما خطب أبي بكر الصدّيق –رضي الله عنه– لاستجلاء قيمها الروحية العميقة ومعانيها البلاغية الدقيقة.

2- تحليل الأساليب البيانية في هذه الخطب، بما في ذلك التشبيه، الاستعارة، الكناية، والتكرار، لاستقطار المعاني البليغة والتقنيات الخطابية المتميزة التي توضح أثر القرآن الكريم في بناء الخطاب.

3- النهضة بالدراسات البلاغية العربية المعاصرة، من خلال تجاوز الأمثلة التقليدية التي وردت في كتب البلاغة، وعدم الاكتفاء بها وحدها، لأن الإبداع في الفهم والتفهيم والتطبيق في البلاغة العربية أوسع بكثير من أن يُحصر في بضعة أمثلة أو خطب محددة.

4- إدراج الخطب البليغة في المناهج التعليمية، مثل خطبة مبايعة أبي بكر الصدّيق للخلافة، وتحليلها بيانيًا في المدارس والجامعات، لتكون قدوة يحتذى بها للخطاب السياسي والإداري، وللبلغاء في فن القول وفهم البلاغة الإسلامية.

فهرس المصادروالمراجع:

أولاً: المصادر:

- القرآن الكريم.

- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة الباب الحلبي، القاهرة: 1941.
- أرسطوطاليس، الخطابة (الترجمة العربية)، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: 1959م.
- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، ط1: 1991م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة: 1975م.
- الجرجاني، عبدالقاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد الفاضلي، المطبعة العصرية، بيروت: 1999م.
- الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، مطبعة الفجالة، القاهرة: 1996م.
- ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2: 1963م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبدالقادر، دار الكتب العلمية،بيروت: د.ت.
- الحنبلي، ابن رجب، لطائف المعارف، فيما لمواسم العام من الوظائف، تحقيق: عبدالله بن عامر، دار الحديث، القاهرة، ط1: 2002م.
- الحيدرة اليمني، كشف المشكل في علم النحو، رسالة ماجستير، دراسة وتحقيق، كامل يعقوب أبو اسنينة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة: 1975م.
- ديوان أبي بكر الصدّيق، حقّقه ونشره: راجي الأسمر، دار صادر، بيروت، ط1: 1997م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة: 1957م.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام (قاموس لأشهر الرجال والناس من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ط6: 1984م.
- السكاكي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة: 1927م.
- سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: 1977م.
- الصعيدي، عبدالمتعال، بغية الغيضاح لتلخيص الإيضاح، المطبعة النموذجية، القاهرة: د. ت.

- الطوفي، سليمان بن عبد القوي، الإكسير في علم التفسير، حقّقه: عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة: 1977م.
- عبدالرزّاق، الحافظ الكبير، أبو بكر عبدالرزّاق بن همّام الصناعي، المصنّف، حقّقه: حبيب الله الأعظمي، نشر المجلس العلمي، جوهانسبرج، جنوب إفريقيا، ط1: 1972م.
- ابن عربي، محمد بن عبدالله، العواصم من القواصم، تحقيق: مُحب الدين الخطيب، دار الثقافة، الدوحة، ط2: 1989م.
- الفرّاء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط2: 1988م.
- الفيروز أبادي، مجد الدين بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد النجّار، المكتبة العلمية، بيروت: د. ت.
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، دار الريّان، القاهرة، ط1: 1988م.
- ابن مالك، جمال الدين، شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، تحقيق: عدنان الدوري، مطبعة العاني، بغداد: 1977م.
- المبرّد، أبو العبّاس، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ط3: 1997م.
- مسلم، الإمام مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2: 1972م.
- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك المعافري، سيرة ابن هشام، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1: 1998م.
- ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد: د. ت.

ثانياً:

- حسني، عادل، طرائق المعاني، دار جرير للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1: 2008م.
- شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط7: 1991م.
- عكّاوي،، إنعام فوّال، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت: 1992م.
- العمري، محمد، في بلاغة الخطاب الإقناعي، سلسلة الدراسات النقدية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1: 1986م.
- قصوري، إدريس، أسلوبية الرواية، مقاربة أسلوبية لرواية زقاق المدق، لنجيب محمفوظ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ط1: 2008.
- المحمود، عبدالرحمن بن صالح، الحكم بغير ما أنزل الله، أحواله، وأحكامه، دار طيبة، الرياض، ط1989:1م.
- أبو موسى، محمد محمد، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، مكتبة هنية، القاهرة، ط2، 2008م.
- الندوي، أبو الحسن علي الحسني، مختارات من أدب العرب، دار الفكر الحديث، بيروت، ط2: 1995م.